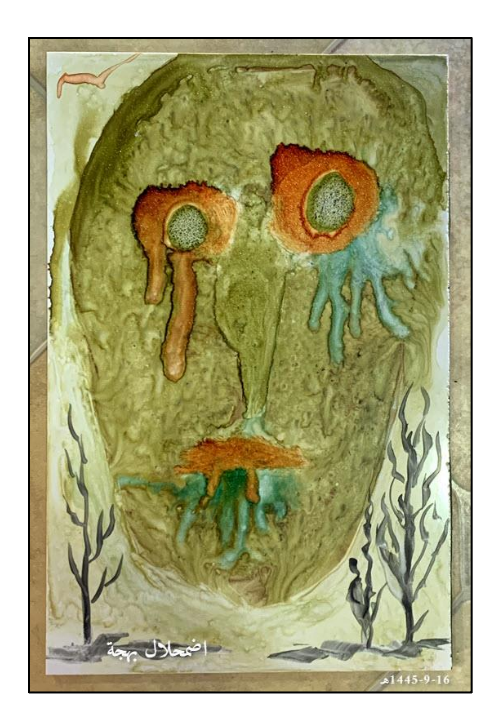
قصة قصيرة : ياسر وفانكا

حلمي صابر - رمضان ١٤٤٥هـ

____



جاء ياسر فرحا إلى اللعب

وركلَ الكرة

وتعلَّقَ بحبال الأشجار المعلقة

وتسلق الأغصان والشجرة

وأصحابه معه ، ملأت وجوههم البهجة

وأصواتهم مليئة بالضحك والسرور

وأحمرتْ خدودهم من جريان الدم في عروقهم

وابتساماتهم جعلت الحديقة أوسع ، وأزهارها أجمل

تسارعَ نبض قلوبهم

كانت سعادتهم تنمو

ولسعادتهم كانت سعادتي معهم تكبر

كنت أرقبهم خلفَ شبكِ أسوار الحديقة ، وبهجتهم تتحركُ معهم، وبهجتي تبتهجُ لبهجتهم

حتى اقتربَ والد ياسر بسيارته نحوهم

وأشار بأصبعه المتينة رفعا وخفضا إلى ابنه ياسر ، أظنهُ كان يهددهُ

ورفع صوته وأصحابه يسمعون

" إذا رجعتَ متأخرًا إلى البيت ، قتلتك "

صكَّ التهديد ياسر صكا

فما عاد يجري خلف الكرة

ولم يعد يتعلق بحبل الشجرة

وانطفأت فيه البهجة

ونبت الشحوب على خديه ، وهدأ نبضه

ووقفت خطواته عن الجري، وانخفضت سعادته إلى أنْ حَزِنتْ

سألَ ياسر أصحابَه مِرارًا : كم مضى من الوقت ؟ وكم بقي من الوقت ؟

يمشي الوقت بطيئا عند الانتظار

ويمضي الوقت بسرعة في الفرح ، ويزداد المرء خوفا في انتظار الخوف

أنا أصِفهُ بعبارةِ : الزمن النفسي ، ولا علاقة له بحركة الشمس والقمر ولا بالليل والنهار

هو شعورك الزمني. يتغير الزمن بمشاعرك وعواطفك ومزاجك وانفعالاتك

فقَدَ ياسر بهجة اللعب بتهديد أبيهِ ، وانطفأت الأفراح في صدرهِ

يا قلبي على صدره

الذي امتدَ فيه الخوف واستلقى على الأضلع

تذكرتُ أطفال هيجو وديستوفسكي وغيرهم

تذكرتُ سمية وسالي في غزة

رجعَ ياسر إلى بيته بعد تهديده بعشر دقائق

كان خائفا من الضربِ القاتل !.

حزِنتُ عليك يا صغيري

تذكرت الصغير فانكا الذي كتب إلى جده لينتشله من الأسكافي

الذي أوسعهُ ضربا وشقاءً وجوعا وفقرا ، في قصة فانكا القصيرة لتشيخوف

كنت أرقبُ الصغار خلف الشبك

أنا دائما خلف شبك ، دائما السجن حولي ، لا يفارقني . اعتدته واعتادني

وهنا في الغربة يتعلم الطفل، الاحتراز من الغريب

وتعلمتُ أنا الغريب بألا أتجاوز الفاصل الشبكي

حتى لا يساءُ الظنَّ بي

لكنني سعيد بابتسامة الصغار وسرورهم ولو خلف الشبك ،

هم خلفه ، وأنا أمامه ، كلنا خلفَ شبك .

العيش مع الكبار يحتاج إلى صبرٍ واسع وحلمٍ كبير

فعليك أن تراعيَ خواطرهم ولو بالضغط على خاطرك

ما عدتُ أتحمل هذا. أريدُ أن أعيش سجيتي كطائر

أعيشُ مع الصغار ، أعيش مع أنا . أعيشُ نفسي بلا أغلفة اجتماعية

حينما كنت طفلا

كنت أكتب وأخترع وأشعر وأعشق

لفتاة الحي ، ولقريبتي ، ولمن تزورنا مع أمها

لكل هؤلاء أعشق

ولا أعرف الفرق ؛ ولم أفرِّق

قال شاعرٌ: العشقُ اضطرابٌ بين العقل والقلب . وأظنه صدق

كان بودي أن أسألَ الشاعر : هل عرفَ الشغف ؟

ذلك الشغف الذي أوردَ زوجِ الوزير في سورة يوسف الموارد !

(قد شغفها حبًّا)

حتى كلمة (قد) هذه هي للتحقيق والتأكيد ولتكثير حجم الشغف الذي كانت فيه

شغفٌ أفقدها عقلها ، حتى انتشر خبرها وقلنَّ النسوة ما قلنَ

وحينما رأوه ، هنَّ أيضا به شغفنَ ، حتى أنهن قطعن أيديهن

فقدوا برؤيته الشعورَ والعقلَ وحتى الاحساس بالألم

إخوته كرهوه ؛ وفي البئر صغيرا رموه . أرادوا بحجة اللعب أن يقتلوه ؟!

والنساء اللاتي عشقنه ، سجنوهُ

الكرهُ أرادَ قتله ، والحب سجنه !

عجبٌ وأيما عجب ! ما هذا المستقبل الذي نجهلوه

مسجونٌ ، أخرجهُ رؤيا الملِك

مسجون ، وفي يديه حل مشكلة البلد !

أليس هذا ما نحن فيه ؟

مهما تعلمت ومهما رأيت وحفظت الماضي والحاضر حتى ظننت أنك أحكمته، علم المستقبل يرغم أنفك.

ماذا نعرف عن المستقبَل وما بعد المستقبَل ؟

سأحاولُ أن أوضحَ فكرتي :

في قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - مع الخضر

جهِل لِم السفينة خُرِقتْ ، وجهل قتلَ الغلام الذي ظنه زكيا ، وجهل بناء جدار الغلامين اليتيمين

حتى أنبأه الخضر لم فعله ، حتى الخضر نفسه لا يعلم ، إنما كان يفعل ما أُمِر به.

لا تذهبْ بعيدا: أم موسى عليه الصلاة والسلام التي رمته رضيعا في النهر، هل كانت تظن أنَّ رضيعها سيكون سبب إغراق فرعون في اليم. فرق عظيم بين المائين. فرعون الذي يبحث عن الطفل الذي خاف منه ، هو الذي في بيته يطعمه ويرضعه ؟!

عجبٌ وأيما عجب ! ما هذا المستقبل الذي نجهلوه

وأعظم مستقبل لا حزنَ بعده حينما يفيق المرء من القبر في البعث ويتولول : (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقِدنا هذا ما وعدَ الرحمن وصدقَ المرسلون) سورة يس آية ٥٢

ياسر مع اللعب في شغف ، فهو طفل يجب أن يلعب

كل المخلوقات في طفولتها تلعب

هل رأيت القطين والجديين الصغيرين ، والغزالين ، والذئبين والأسدين الصغيرين، والفيلين بخرطومهما في لعِب ؟

اللعب فطرة ، وفي الطفل أفطر

فيه يتعلم ، ويتكلم ، ويعبِّر ، ويحب

كل الصغار مع اللعبِ في شغف

ولا يجتمع الخوفُ مع اللعب

وهذا ما فعله والدُ ياسر : وضعَ الخوف على بهجة اللعب !

فما عاد اللعبُ ، لعبا ؟! صار اللعبُ خوفًا ، ففقدَ اللعِب فرحَهُ !

نعم ، للخوفِ من الخطأ ومن الذنب لئلا فيه تقع

الأبُ جدار للولد .

وا حزني : خاف ياسر من الجدار أن يسقط عليه وهو في لعِب ؟!

وهي قصتنا مع أوطاننا : الوطن أمنٌ

والأسف كل الأسف ؛ صارت أوطاننا خوف

حتى في ذكرِ الطرائفِ نخاف ، فعندما نضحك ، نلتفتُ : هل أذان الجدار تسمعنا !

نأمنُ في الشارع، ونخافُ في البيت ؛

نأمن في الغربة ، ونخاف في الوطن ؛ فهربنا وهاجرنا

ما عدتُ انتمي ، صارت الأرض كلها وطن !

واليوم، ياسرٌ في البيت يُخنَق

وكان مع اللعب في شغف ، ولم يعدْ يعشق

لا يرَ فرقا بينه وبين أيةِ فتاة؛ لأنها صارت رفيقته في المدرسة

يراها تشتم وتكسر وتضرب ، فتصرفاتِها كالولد

ما عادت تطبخ ، ولا للصوف تغزل

والولد تصرفاته كالبنتِ ، صار مثلها يتمكيج !

حتى أنَّ مكرهم ، أوجدَ نوعا ثالثا من البشر لم يخلق ؟!

هذه المنطقة المشتركة بين النوعين

هي للزوجين ولا لغيرهما

لكن كل شيء صار اليوم فيه يُعبث

سمعتُ معك تهديدَ أبيك

فانطفأتْ سعادتي مع الصغير ، رأيته حزينا ؛ وملأت دمعتي عيني

شاهدتُ مقتل فرح السعادة باسم الحب والأبوة ورعاية الطفل

والطفلُ في غزةَ يُقتَل

ما الفرق بين اليتم وحضور الأبوة ؟!

ليت الأبَ علَّم صغيره لمس الوردة وشم الزهرة

وليت علَّم عينيه أن يرقبَ الطيرَ

وليته ألمسهُ ورقَ الشجرة

وليته وضع بين أصابعه الألوان والكلمة

ليته ركلَ معه الكرة

رمقتُ ياسر وهو خارج من الملعب قبل الوقت ، وخطاه تتقدم إلى البيت القريب

لكنَّ خطاه كانت ترجع

وقبل أن يدلفَ البناية، ركلَ حصاةً صغيرة لكنه أخطأها ، وأخذ عودا

ورسم على التراب مشنقة، ورفع رأسه إلى شقتهم في الدور الثالث خِشيةَ أنَّ أباه رأى رسمته .

مسحَ خطوط المشنقة بقدمه. تعلمَ الخوفَ من الاستبداد ولو بكتابةٍ على تراب.

التعبير في الطفل مشنوق ؟!. بمثل هذا مات الإبداع.

ذاقَ طعمَ السياسةِ صغيرا ، أدركَ الاستبدادَ في البيت

وبعدُ لم يطعمْ الاستبداد في السياسة ،

رمى العود نحو الملعب ؛ فلا زال مشتاقا للرجوعِ إليه.

أيها المسكين ياسر !

يا كآبتي على كآبة هذه الأقدام بحذائها القديم

حزِنتُ عليك أيتها الأصابع الصغيرة

هو طفلٌ، وليس هو موظف في البيت لضبط الحضور والانصراف

هو طفل سينسى ، وأصحابه لم يكترثوا ، وسينسون ما جرى

لكنني لم انسى

تتجددُ الذكرى

لمَ يا أبا ياسر : قتلتَ في الطفلِ البهجة ؟!

وذكرتني بسمية وسالي وفانكا ؟!

___ انتهى ____